تراديات

▪ القمر في القران ▪

الأستاذ محمد الحامدي

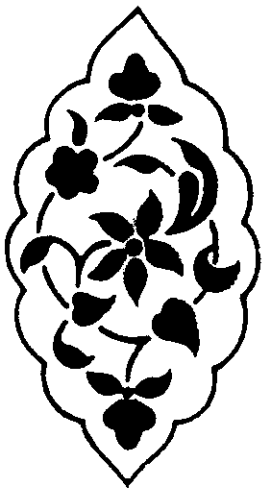

نعرف اليوم الكثير عن القمر (تابع الأرض) الطبيعي، عن حركته وأوضاعه وتأثيراتـه في الأرض والحياة ، وشيئـاً من خصائصـه وبنيته ، وقد هبط عليه الإنسان في تمـوز ١٩٦٩ لأول مرة ، وتلت ذلـك رحلات أخـرىٰ ، ودُرِسَ بأجهـزه دقيقة أُعـدت خصيصـاً للبحث عـلى سطح القمـر في ظروفـه الطبيعية ، ومجـال بحثنا لا يتناول القمر من الناحية العلميـة البحتة ، إلا بالقدر الذي يخـدم أهداف البحث الأساسية ، وهي نظرة القرآن لهذا الجرم الفلكي الصغير بحجمه والكبير بأهميته .

وقبـل تقسيم البحث إلى فقرات ، نُنـوِّه إن صورة الكـون وحركته الظاهرية هي صورة في إحساسنا البصري ، ولا تعبر عن الحقيقة الموضوعية ، فالأرض ثابتة بمعطيات حاسة البصر ، وتـدور الشمس حولهـا من الشرق إلى الغرب وكذلك القمر وسائر النجوم والكواكب . ونعرف اليوم أن الأرض تـدور حول محـورها من الغرب إلى الشرق ولذلك تبدو لنا القبة السماوية بكل أجرامها متحركة من الشرق إلى الغرب ، وقد خاطب القرآن الكريم العقول البشرية على قدر فهمهما ، وحسب ما تراه ظاهـراً ، وأشار إلى الحقيقة الموضـوعية ، ويمكن تلمُّس ذلـك في معظم الآيات التي تحـدث عن الطبيعة والحيـاة ، وتسهيلاً لمناقشة موضوع بحثنا (القمر في القرآن) نقسمه إلى فقرات عديدة نتناولها تباعاً .

١ ـ عبادة القمر .
٢ ـ القمر آية كونية .
٣ ـ القمر جسمٌ منير .
٤ ـ القمر للتوقيت والحساب .
٥ ـ مستقبل القمر .

أولاً : عبادة القمر :

أثار القمر انتباه الإنسان البدائي ، كما أثارته الظواهر الأخرى من شمس ونجوم وكواكب ، وعوامل الطبيعة من برق ورعد ورياح وزلازل وبراكين . ولكن كان للقمر تأثير أكبر ، لعدة أسباب ، فالإنسان كائن نهاري النشاط ، فكل إهتمامه منصب على تأمين حاجاته الأساسية في النهار ، ولم يجد متسعاً من الوقت للتأمل نهاراً في آيات الله في الكون ، فكان الليل هو الوقت الأمثل للتأمل في آلاء الله ، حيث لا يوجد نشاط حركي للإنسان ، وبذلك تكون جملته العصبية في حالة راحة فيزيولوجية ، ويبقى النشاط الفكري في المخ هو السائد ، ولا شك أن القمر هو الجرم المثير من النجوم ، لحجمه الظاهري ، وتغيرات شكله من هلال إلى بدر ، ثم إلى هلال خلال الشهر .

فاتخذه الإنسان البدائي معبوداً ، ونجد في أساطير الشعوب ومعتقداتهم آلهة تمثل القمر ، أو طقوساً فعلية في عبادة القمر .

ويورد فراس سواح في كتابه « مغامرة العقل الأولى » ص / ١٦ ما يلي :

« فكثير من المدارس الألمانية في تفسير الأسطورة ، Ehrenneich – winekler – siecke – وآخرون ، قالت بأن جميع الأساطير يمكن إرجاعها إلى القمر ، لقد أثار هذا الجرم المشع رهبة الإنسان البدائي وأثار فيه التفكير ، وكان باعثاً على مجموعة من الديانات البدائية التي تركزت حوله . فالشهور والأمواج والطمث وأشياء أخرى قد بدت وكأنها تعمل بوحي من القمر . وقد قام أصحاب هذا الإتجاه بجمع عدد هائل من الأساطير البدائية للدلالة على صحة نظريتهم ، ومعظم هذه الأساطير تتركز حول آلهة جاءت من القمر ، أو أبطال حضاريين سرقوا النار السماوية من هذا الجرم الملتهب لينفعوا بها الناس » .

ويرى « ولْ ديورانت » في قصة الحضارة ، أن القمر يُمكن أن يكون أقدم الآلهة التي عبدها المصريون القدامى . وكذلك عرفت عبادة القمر عند العرب ، وخاصة عرب الجنوب ، قبل الإسلام ، وفي بلاد الرافدين عبد القمر مع الشمس .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة ، وبين كوامن النفس البشرية التي تريد معرفة خالق الكون ، وعلة ظواهره :

(فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين *) الأنعام (٧٦ ـ ٧٧) .

إن هذا الحوار النفسي من نبي الله إبراهيم عليه السلام ، يلخص القلق النفسي الذي عاشه الإنسان البدائي على الأرض ، والقرآن بهذا الأسلوب يصنع منهجاً علمياً للوصول

الحقيقة ، البداية من الشك ثم البرهان على بطلانه . لاحظوا :

(فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون) ـ الأنعام (٧٨) .

وتفيد الآية أن القوم الذين عاصرهم نبي الله إبراهيم عليه السلام : كانوا يشركون في عبادة الله الشمس والقمر ، وكذلك أصناماً صنعتها أيديهم . والخليل عليه السلام اتبع منهجاً علمياً لإثبات بطلان ربوبية أي ظاهرة غير خالدة ، فالمعبود يجب ألا يغيب وألا يعتريه نقص ، لا يتبدل ولا يتغير .

وقد بين الله في كتابه الحكيم ، أن الشمس والقمر من آيات الله للتأمل لا للعبادة **(ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)** ـ فصلت (٣٧) .

لاحظوا المنطق القرآني في المعالجة ، لم يُهن الشمس ولا القمر ، هما آيتان من مخلوقات الله ، وآيات الله تستحق التقدير ، ولكن لا تستحق السجود والعبادة .

خلاصة ما تقدم : يؤكد القرآن أن الإنسان عبد القمر كما تثبته كتب تاريخ الحضارة ولكن لم يقر بهذه العبادة .

ثانياً : القمر آية كونية :

يلفت القرآن الكريم انتباهنا لجملة آيات كونية، ومنها القمر ، ونظراً لأهمية هذه الآية الكونية (القمر) ، فقد وردت سورة في القرآن الكريم باسم (القمر) وهي السورة رقم (٥٤) في ترتيب سور القرآن وعدد آياتها (٥٥) آية .

وذكر اسم القمر سبعاً وعشرين مرة في القرآن . وقد بين الله أن هذه الآيات الكونية ومنها القمر ، مسخرة للإنسان ، يتدبر أمرها ، ويستفيد منها ، في حدود معرفته وامكانياته المتاحة، فالتسخير يعني وضع الشيء في خدمة الإنسان دون شروط وقيود . ولنسمع ما يقوله القرآن بهذا الخصوص :

(إن ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ـ الأعراف (٥٤) .

(الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ـ الرعد (٢) .

(**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار**) إبراهيم -(٣٣) .

(**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخرات بأمره إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون**) - النحل - (١٢) .

(**وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كلٌ في فلكٍ يسبحون**) الأنبياء (٣٣) .

(**ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثيرٌ حق عليه العَذابُ ومن يُهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء**) - الحج - (١٨) .

إلم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمىً وأن الله بما تعملون خبير) - لقمان (٢٩) .

(**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمىً ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير**) -فاطر (١٣).

(**خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجلٍ مسمىً ألا هو العزيز الغفار**) الزمر - (٥) .

ثالثاً : القمر جسم منير :

الأجرام السماوية ، منها ما يشع الضوء ذاتياً كالشمس والنجوم فهي مضيئة ، ومنها ما يعكس الضوء الساقط عليها كالكواكب والأقمار فهي منيرة .

والضوء لغةً أسطع من النور الذي لا يبهر العين .

وقد وصف الله الشمس بالسراج ، والسراج يبعث الضوء بالإحتراق :

(**هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً** ...) يونس - (٥) .

(**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** *) نوح (١٥ - ١٦) .

(**تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً**) الفرقان - (٦١) .

إذاً القمر جرم فلكي عاتم عاكس للضوء ، فيبدو منيراً ، وقد كان القرآن دقيقاً في اختيار الكلمات المعبرة عن الحقيقة ، فالشمس سراج ، والشمس تبعث الضياء أما القمر فهو نور ، لا هو بالسراج ولا بالضياء ، وإذا كنا اليوم بعد التقدم الهائل في علم الفلك ومعرفة نظام الكون والكث[illegible] أسرار الشمس والقمر والكواكب نرى في هذه المعلومات بديهيات ، فإن القرآ[illegible]

فترة كانت أفكار الناس عند حدود عبادة الأصنام ، ونظرتهم للكون أضيق من تصورات طفل في السابعة من عمره الآن ، باستثناء قلة لا تذكر ، والقرآن خاطب عموم الناس .

رابعاً : القمر للتوقيت والحساب :

(فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم) ـ الأنعام (٩٦) .

(هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقومٍ يعلمون) يونس ـ (٥) .

(الشمس والقمر بحسبان) ـ الرحمن ـ (٥) .

إن الشمس والقمر لعبا دوراً كبيراً في ضبط التوقيت في حياة الإنسان قديماً وحديثاً ، وما زلنا نستخدم مصطلح التقويم الشمسي والتقويم القمري .

ولكن كثيراً من الناس لا يعرفون الأهمية الكبيرة التي أعطاها القمر للإنسان لتحديد التوقيت السنوي وأجزائه .

فاليوم يمكن معرفته من تعاقب الليل والنهار ، من الشروق إلى الشروق يوم واحد . فكيف توصل الإنسان إلى تحديد الشهر ؟

أغلب الظن أن القمر أوحىٰ بفكرة الشهر ، فظهور القمر هلالاً رفيعاً في الغرب وارتفاعه يومياً مع انتفاخ الأهلة حتى يصبح بدراً ، ثم تآكل القرص المنير حتى يصبح هلالاً ، ثم يختفي ليظهر من جديد ، كان يستغرق في هذه الدورة بشكل وسطي ثلاثين يوماً ، فوجد الإنسان مقياساً آخر للتوقيت هو الشهر من ظهور الهلال في الغرب إلى ظهوره التالي .

وهذا المقياس كبير نوعاً ما ، فلجأ إلى تجزئته ، فمن ظهور الهلال إلى التربيع الأول (نصف دائرة) سبعة أيام فظهرت فكرة الأسبوع ، وسبعة أخرىٰ يكتمل القمر فيصبح بدراً ، ثم سبعة أخرىٰ يصبح في التربيع الأخير (نصف قرص) وسبعة أيام أخرىٰ يختفي القمر فيصبح في المحاق ليظهر من جديد .

(والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر والليل سابق النهار وكلٌ في فلكٍ يسبحون) يس ـ (٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠) .

هكذا لعب القمر دوراً أساسياً في تحديد الأسبوع والشهر ، ولا شك أن العلاقة بين الشمس والقمر أوحت بوجود ترابطٍ ما ، بينهما . فالشمس أيضاً تغير موقعها في الكون ، ومن

ملاحظات دقيقة لمدىٰ عشرات ومئات السنين تمكن الإنسان من تحديد السنة بإثنتي عشر شهراً .

فبعد تكرار (١٢) شهراً تعود الشمس إلى موقعها المرصود ، ويمكن القول : إن الشمس حددت السنة واليوم في التوقيت ، والقمر حدد الشهر والأسبوع ، وكلاهما مترابطان ولهذا أكد القرآن على دورهما المشترك في التوقيت والحساب (**الشمس والقمر بحسبان**) ـ الرحمن (٥) .

وما زلنا نعتمد الشهر القمري في تحديد مواقيت الصيام والحج وغيرهما من الأحكام الشرعية المؤقتة بوقت محدد .

(**ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**) ـ البقرة ـ (١٨٩) .

إنه جواب إلهي يحدد الغاية من ظهور الأهلة ، فلو لم يمر القمر بهذه الأدوار لما اهتدىٰ الإنسان إلى فكرة التوقيت الشهري ، ولا إلى الأسبوع ، وهما توقيتان ضروريان للحياة الإجتماعية .

إن الإنسان قادر على وضع توقيت ما ، ولكن سنة الحياة وتطور الأحياء من نباتات وحيوانات في دورة تكاثرها تلاءمت مع هذا التوقيت الإلهي الذي اهتدىٰ إليه الإنسان .

والإنسان لم يتوصل إلى أجهزة ضبط الوقت إلا في وقتٍ متأخر ، لذلك كانت الشمس وكان القمر هما الساعة الكونية لضبط الوقت : (**لتعلموا عدد السنين والحساب**) .

خامساً : مستقبل القمر :

ما هو مستقبل القمر ؟ هل سيبقى كما هو أم سيتغير ؟ هل سيزول أو يفلت من جاذبية الأرض ويضيع في أغوار الفضاء السحيقة ؟ هل ... وهل ، أسئلة كثيرة تتعلق بمستقبل القمر ، ولا يهمنا هنا ما توقعه علماء الفلك المتفائلون أو المتشائمون عن مصير القمر . إنما نناقش ما أشارت إليه بعض الآيات القرآنية ، وهي تدعو للتأمل ويبقى العلم الحقيقي عند الله :

(**إقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**) ـ القمر (١ ـ ٢) .

يقول القاضي البيضاوي : « روىَ أن الكفار سألوا رسول الله (ص) آيةً فانشق القمر ، وقيل معناه سينشق القمر يوم القيامة ، ويؤيد الأول أنه قريء (وقد انشق القمر) أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها إنشقاق القمر » .

... د الآلوسي في روح المعاني مختلف الأقوال في تفسير هذه الآية ، ويؤكد وقوع الانشقاق

فعلاً في العام الخامس قبل الهجرة ، ليلة الرابع عشر من الشهر القمري ، أي عندما كان بدراً .

ومعظم التفاسير الأخرى تؤكد على وقوع الإنشقاق .

وأكدت كتب الحديث على حدوث الإنشقاق ، وذلك معجزة لرسول الله (ص) واختلفت الروايات في وصف الإنشقاق .

إن الظاهرة إن وقعت فهي معجزة ، والمعجزة خارقة لنواميس الطبيعة والكون ، فالمنطق العلمي يرفض انشقاق كتلة بحجم القمر ، ويبتعد القسمان عن بعضهما مسافة كبيرة ، ثم يلتحمان ثانية .

ولعل ما حدث كان رأي العين ، ولهذا قال تعالى (**وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر**) . إذ توهم الكفار أن ما حدث هو سحر .

فلو بقي القسمان دون أن يلتحما لكانت معجزة مستمرة ، ويقال إن بعضاً من أهل مكة قالوا إذا لم يكن ما حدث سحراً ، فإن أهل السفر لا بد أن يروه ، وعندما سُئل أهل السفر بعد عودتهم ، أكدوا مشاهدة الإنشقاق .

تبقى هذه الروايات تحتاج إلى سند موثق ، وإذا كان الإنشقاق فعلياً لا رأي العين فكيف يتأكد الكفار من انشقاقه ؟ .

إن الدليل الذي لا شبهة فيه هو بقاء الإنشقاق عدة أيام ليشهده القاصي والداني ، وسقوط جزء منه على الأرض وهذا ما لم تؤكده الروايات .

ويبقى احتمال انشقاقه مستقبلاً وارداً بنص الآية ، فصيغة الماضي استخدمت لاقتراب الساعة وانشقاق القمر ، ولهذا يمكن تأويل الآية بما يحدث في المستقبل عند اقتراب الساعة ، واقتراب الساعة إيذان بزوال نظام الكون الحالي واضطراب نواميسه وأجرامه .

وحاول بعض المعاصرين تأويل انشقاق القمر ، بانفصاله عن الأرض ، وهذا أحد الفرضيات عن نشوء القمر ، وأصحاب هذا الفرض يوردون أدلة على انفصاله منها ، ابتعاد القمر حالياً عن الأرض بمقدار بسيط جداً سنوياً ، فإذا عدنا بهذا المعدل إلى الوراء لوجدنا أن القمر كان ملتصقاً بالأرض قبل (٣,٥) مليار سنة ومقعر المحيط الهادي يعادل بحجمه حجم القمر ويحتمل انفصال القمر عن الأرض من ذلك المكان ، ويبقى هذا الفرض في حدود التخمين وفي كل الأحوال لا يفهم من آية انشقاق القمر إنفصاله من الأرض .

(فإذا بَرِقَ البصر * وخَسَفَ القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر *) القيامة ـ (٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠) .

إنها ظواهر تحدث يوم القيامة ، لا يمكن تفسيرها على ضوء المعطيات العلمية والنظام

الفلكي الحالي ـ فإذا برق البصر ـ ربما تدل على حدوث انفجار رهيب في الشمس أو في مكان ما في الكون .

وعلماء الفلك على ضوء الدراسات العلمية يتوقعون نضوب وقود الشمس ، وعندها ستتكور ثم تنفجر لتمتد حتى تحتوي الأرض والقمر والمريخ أيضاً ، وهذا متوقع بعد (٥) مليارات من السنين ، وبذلك يجمع الشمس والقمر ولا مفر للإنسان إذ سيصبح جسمه أبخرة وغازات تدور بدوران الشمس المحتضرة .

وقد مرت نجوم بهذه المرحلة وهي أقدم عمراً من الشمس . والشمس هي إحدى نجوم المجرة التي نسميها (درب التبانة) أو (الطريق اللبني) .

(**والقمر إذا اتسق . لتركبن طبقاً عن طبق**) الإنشقاق (١٨ ـ ١٩) .

معظم المفسرين يذهبون في معنى (لتركبن طبقاً عن طبق) أي تنتقلون من حال إلى حال ، والربط بين اتساق القمر (عندما يصبح بدراً) والإنتقال من حال إلى حال يدعو للتأمل .

وربما كان من معاني الآية ، عند وضوح القمر (إتساقه) ومعرفة خصائصه يمكن الإنتقال إليه عبر طبقات الجو ، مرحلة ، فمرحلة ، ويلفت انتباهنا أن ما صنعه الإنسان من وسائل نقل فضائية تدور حول الأرض تدعى أقماراً إصطناعية وما أثارته الأطباق الطائرة من جدال لم ينته بعد .

(**والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها**) ـ الشمس (١ ـ ٢) .

إنه قسم بالشمس والقمر ، ويحق للخالق أن يقسم بمخلوقاته لعظيم موقعها وأثرها . وإذا أخذنا التصور الحركي للشمس والقمر من هاتين الآيتين ، نقول : لا يتحقق هذا الوضع إلا في بداية الشهر القمري، أو نهاية الشهر السابق ، فإذا تلا القمر الشمس بعد شروقها بفترة قصيرة ، لظهر هلالاً في الغرب عند المساء لتخلفه عن الشمس والله أعلم بمراده .

(**كلا والقمر * والليل إذا أدبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكُبر** *) المدثر ـ (٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥) .

متى سيحدث ذلك ؟ هذا في علم الله .

ثم ماذا عن القمر ؟

في قصة يوسف عليه السلام : (**إذا قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**) ـ يوسف (٤) .

فُسِّر القمر في الرؤيا بأحد الأبوين ، والقصة معروفة .

وفسر الشهر في قوله تعالى (**فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ـ) البقرة (١٨٥) بالقمر أي من رأى هلال رمضان وجب عليه الصوم .

ويقول تعالى : (**متكئين فيها على الأراك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً**) الإنسان (١٣) ويفسر البعض الزمهرير هنا بالقمر ، ومن معانيه البرودة الشديدة أيضاً .

تلك آيات الله في كونه . حثنا على التفكير في آلائه والإهتداء إلى عظيم قدرته ، ولكن أكثر الناس غافلون .

(**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنّى يؤفكون**) ـ العنكبوت (٦١) .

من دعاء للإمام الحسين (ع) :

« إلٰهي ، كيف يُسْتَدَلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟
أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك .. حتى يكون هو المظهر لك ؟
متى غبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟
ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟
عميت عين لا تراك عليها رقيباً ...